بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

مدنيّة ، وهي ست آيات.

تسميتها :

سميت سورة الناس لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ .. وتكررت كلمة النَّاسِ فيها خمس مرات. وقد نزلت مع ما قبلها ، وهي مكية عند الأكثر ، وقيل : مدنية كما تقدم. وعرفنا وجه مناسبتها لما سبقها.

وهي آخر سورة في القرآن ، وقد بدئ بالفاتحة التي هي استعانة بالله وحمد له ، وختم بالمعوذتين للاستعانة باللَّه أيضا.

ما اشتملت عليه السورة :

اشتملت هذه السورة ، وهي ثاني المعوذتين على الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إلى ربّ الناس الملك الإله الحق من شرّ إبليس وجنوده الذين يغوون الناس بوسوستهم.

و قد عرفنا أن هذه السورة وسورة الفلق والإخلاص تعوذ بهن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من سحر اليهود. وقيل : إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقشتان ، أي تبرئان من النفاق.

روى الترمذي كما تقدم عن عقبة بن عامر عن النّبي صلّى اللَّه عليه وسلّم قال : « لقد أنزل الله

ج 30 ، ص : 479

علي آيات لم ير مثلهن : قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ إلى آخر السورة ، وقُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ

الْفَلَقِ إلى آخر السورة.

وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه مسلم أيضا.

الاستعاذة من شرّ الشياطين [سورة الناس (11(4) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

الإعراب :

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إما بدل من شَرِّ الْوَسْواسِ وتقديره : أعوذ بربّ الناس من شرّ الجنّة والناس ، وإما متعلق بمحذوف تقديره : الكائن من الجنة والناس ، الذي يوسوس في صدور الناس. وفي يُوَسْوِسُ ضمير الجنّة ، وذكّره لأنه بمعنى الجنّ ، وكنى عنه مع التأخير لأنه في تقدير التقديم ، كقوله تعالى : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى [طه 20/ 67] فتقدم الضمير لأن موسى في تقدير التقديم ، والضمير في تقدير التأخير.

البلاغة :

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وما بعدها : الإضافة للتشريف والتكريم والاستعانة ، فقد أضيف الرّب إلى الناس لأن الاستعاذة من شرّ الموسوس في صدورهم ، استعاذوا بربّهم مالكهم وإلههم ، كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر. قال أبو حيان : والظاهر أن مَلِكِ النَّاسِ ، إِلهِ النَّاسِ صفتان. وقال الزمخشري : عطف بيان للرّب ، فإن الرّب قد لا يكون ملكا ، والملك قد لا يكون إليها.

بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلهِ النَّاسِ إطناب بتكرار الاسم ، زيادة في التكريم والعون ، ومزيد البيان ، والإشعار بشرف الإنسان.

ج 30 ، ص : 480

الْجِنَّةِ .. وَالنَّاسِ بينهما طباق.

يُوَسْوِسُ والْوَسْواسِ بينهما جناس اشتقاق.

ويلاحظ أن الفواصل منتهية بالسين الذي فيه جرس خافت ومهيب وله وقع في النفوس.

المفردات اللغوية :

أَعُوذُ ألتجئ وأحتمي. بِرَبِّ النَّاسِ مربّيهم ومعتني بشؤونهم ، قال البيضاوي: لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضارّ البدنية ، وهي تعمّ الإنسان وغيره، والاستعاذة في هذه السورة من المضارّ التي تعرض للنفوس البشرية، وتخصها، عمم الإضافة ثمة، وخصصها بالناس هاهنا، فكأنه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس بربّهم الذي يملك أمورهم، ويستحق عبادتهم.

مَلِكِ النَّاسِ، إِلهِ النَّاسِ صفتان تدلان على أنه تعالى حقيق بالإعاذة، قادر عليها، غير ممنوع عنها. الْوَسْواسِ الموسوس الذي يلقي في النفوس خواطر الشرّ والسوء. ويصح أن يراد به المصدر أي الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة. الْخَنَّاسِ صيغة مبالغة، أي من عادته أن يخنس، أي يتأخر بذكر الله، والخنوس: الرجوع والتأخر. مِنَ الْجِنَّةِ بيان للوسواس، جمع جني كإنسي وإنس، والجن: خلق مستتر لا يعلم به أحد إلا الله تعالى.

التفسير والبيان:

قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلهِ النَّاسِ أي قل أيها الرسول: ألجأ وأستعين بالله مربي الناس ومتعهدهم بعنايته ورعايته، وخالقهم ومدبر أمرهم ومصلح أحوالهم، وله

الملك التام والسلطان القاهر، وهو الإله المعبود الذي يعبده الناس، واسم الإله خاص بالله لا يشاركه فيه أحد، أما الملك فقد يكون إلها وقد لا يكون.

و هذه صفات ثلاث لله عزّ وجلّ: الربوبية، والملك، والألوهية ، فهو ربّ كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له. وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية، ثم ذكر الملكية لأن المستعيذ لا يجد عونا له ولا غوثا إلا مالكه، ثم ذكر الألوهية لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه.

ج 30 ، ص : 481

و السبب في تكرار لفظ النَّاسِ هو مزيد البيان والإظهار ، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى ، وقال : « ربّ الناس » مع أنه ربّ جميع المخلوقات ، فخصّ الناس بالذّكر للتشريف ، ولأن الاستعاذة لأجلهم.

مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ أي ألجأ إلى الله وأحتمي من شرّ الشيطان ذي الوسوسة ، الكثير الخنوس أي الاختفاء والتأخر ، بذكر الله ، فإذا ذكر الإنسان الله تعالى خنس الشيطان وانقبض ، وإذا لم يذكر الله انبسط على القلب. قال ابن عباس في هذه الآية : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس. وقد سلط الله الشيطان على الناس إلا من عصمه الله، للمجاهدة والفتنة والاختبار، ثبت في الصحيح أنه « ما منكم من أحد إلاوكّل به قرينه ، قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » .

وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو معتكف، وخروجه معها ليلا، ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النّبي صلّى الله عليه وسلّم أسرعا، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «على رسلكما، إنها صفية بنت حييّ، فقالا: سبحان الله، يا رسول الله، فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا- أو قال: شرّا » .

و روى الحافظ أبو يعلي الموصلي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسي التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخنّاس » .

و

روي الإمام أحمد عن أبي تميمة يحدث عن رديف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «عثر بالنّبي صلّى الله عليه وسلّم حماره ، فقلت: تعس الشيطان، فقال النّبي صلّى الله عليه وسلّم: لا تقل: تعس الشيطان ، فإنك إذا

ج 30 ، ص : 482

قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب» .

وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب.

ثم أبان موضع وسوسته ، فقال :

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ أي الذي يلقي خواطر السوء والشرّ في القلوب ، وإنما

ذكر الصدور لأنها تحتوي على القلوب ، والخواطر محلها القلب ، كما هو المعهود في كلام العرب.

ثم بيّن الله تعالى أن الذي يوسوس نوعان: جني وإنسي، فقال:

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أي أن ذلك الموسوس إما شيطان الجن، فيوسوس في صدور الناس، كما تقدم، وإما شيطان الإنس، ووسوسته في صدور الناس:

أنه يري نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة، فيجعله فريسة وسوسة الشيطان الجني. وهذا يدل على أن الوسواس قد يكون من الجن وقد يكون من الناس، كما جاء في قوله تعالى: وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً [الأنعام 6/ 112] أي ليست العداوة قهرية جبرية، وإنما بما أودع الله فيهم من قدرة الاختيار، فمنهم من يختار الإصغاء لوسوسة الشياطين، ومنهم من يحذر عداوتهم ووسوستهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

علّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمة بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن، وعرفنا أنه بصفاته الثلاث: الربوبية، والملك، والألوهية، يحمي

ج 30 ، ص : 483

المستعيذ من شرور الشيطان وأضراره في الدين والدنيا والآخرة. ومعنى الربوبية يدل على مزيد العناية وحرص المربي.

وإنما ذكر أنه بِرَبِّ النَّاسِ وإن كان ربّا لجميع الخلق ، لأمرين :

أحدهما- لأن الناس معظّمون ، فأعلم بذكرهم أنه ربّ لهم ، وإن عظموا.

الثاني– لأنه أمر بالاستعاذة من شرّ الناس فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم « 1 » . ثم ذكر صفتي الملك والألوهية ليبين للناس أنه ملكهم الحقيقي ، وإن كان لهم ملوك ، وأنه إلههم ومعبودهم ، لا معبود لهم سواه ، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ، ويلجأ إليه ، دون الملوك والعظماء.

أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن، وإما شيطان الإنس. قال الحسن: هما شيطانان أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين ، فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن.

ويلاحظ أن المستعاذ به في سورة (الفلق) مذكور بصفة واحدة وهي أنه «ربّ الفلق»، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي «الغاسق» والنَّفَّاثاتِ و «الحاسد». وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث: وهي الرّب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، وسبب التفرقة: أن المطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في هذه السورة سلامة الدين، ومضرة الدين، وإن قلّب، أعظم من مضارّ الدنيا وإن عظمت «2» .

---

(1) تفسير القرطبي : 20/ 260 [.....]

(2) تفسير الرازي : 32/ 199

ج 30 ، ص : 484

و بعد ، فقد سجدت شكرا لله تبارك وتعالى على ما أولاني وأسبغ علي من كمال وفيض النعمة وتمام المنة ، بانتهاء هذا التفسير الشامل للمأثور والمعقول ، والجامع

لأنواع البيان وأحكام القرآن ، وهو تفسير العصر ، وذلك في تمام الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاثنين المبارك الواقع 13 من ذي القعدة 1408 هـ ، الموافق 27/ 6/ 1988 م ، وكان العمر حينذاك 56 عاما. وقد تفرغت لهذه المهمة خلال سنوات طوال ، هاجرت فيها إلى دولة الإمارات– العين ، تاركا الأهل والولد ، مستغرقا في عظمة كلام ربّي عزّ وجلّ ، فازددت إيمانا على إيمان.

وكان أول مؤلف لي في بلدتي « دير عطية » من نواحي دمشق الفيحاء ، التي ولدت فيها سنة 1932 م ، وهو آثار الحرب في عام 1962 م ، ثم تابعت التأليف والبحث وكتبت أغلب مؤلفاتي وبحوثي التي أربت على الثلاثين في رياض دمشق والعين ، فاللهم لك الحمد والشكر ، اجعل كل حرف من كتابك وتفسيره وجميع ما صنفت خالصا لوجهك الكريم ، وحقق به النفع والخير ، وأعتق به من نارك في الآخرة كل جزء من جسمي وروحي ، وشعري وبشري ، وعظمي ولحمي ، وسمعي وبصري ، ومخي ودمي ، وأدخلني الجنة بستر وسلام.

سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بي في أموري كلها كما أحب ، ورضني في دنياي وآخرتي ، واغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات.

ج 30 ، ص : 485